الفصل الخامس

تغيير مكانة المرأة
من فوق سبع سماوات

obeikandl.com

مدخل:

إن كل أشكال القوانين الوضعية، وجميع أنماط التشريعات البشرية يضعها البشر ثم ينقضونها من بعد ذلك ، لأنها عادة ماتكون غير معبرة عن كل مايريدون ، كما أنها تحتوي من المثالب والعيوب بقدر مافي هؤلاء البشر من نقائص ونزعات وأهواء تتغير على مر الأيام ، وعلى مر العصور والأزمنة .

ولقد شهدت المجتمعات البشرية ، باتساع الكرة الأرضية ، وعلى مر عصور التاريخ محاولات من البشر لإصلاح عيوب في مجتمعاتهم ظنوا يوما أنهم قادرون على إصلاحها ، ولكن خابت جهودهم وقصرت مساعيهم ، ولم يستطيعوا أن يصلوا إلى لب العلاج وجذوره لسبب بسيط هو أنهم لم يفهموا ، أو لم يتوصلوا إلى فهم روح الإنسان ، ومن ثم لم يعرفوا كيفية التعامل معها ، بينما الحق تبارك وتعالى هو القادر على أن يتعامل مع ذلك الإنسان ، وتلك الروح لأمر بدهى لايغيب عن عقول الكثيرين ، بل ولاينبغي أن يغيب عن الجميع ، وهذا الأمر هو أن خالق البشر هو العليم بأمر علاجهم : « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير» (الملك/ ١٤)(★) .

ونضرب مثالاً واحداً على فشل التشريعات البشرية ، من التاريخ المعاصر، ومن أعتى المجتمعات تقدما في الماديات ، ونقصد به المجتمع الأمريكي ومشكلته مع تعاطي الخمور ، فلقد اكتشف أولو الأمر فيه أن هذه العادة المرذولة ذات أثر خطير ومدمر على الفرد والأسرة والمجتمع ككل ، فأصدرت الحكومة الأمريكية قرارا يقضي بمنع تعاطيها ، ولكن هذه الحكومة لم تستطع تنفيذ هذا القانون بسبب الأفراد والعصابات التي تفننت في صناعتها سرا ، وفي تهريبها . وقامت حرب خطيرة بين

(★) يمكن في هذا المجال مراجعة كتاب الشيخ محمد متولي الشعراوي : الإسلام حداثة وحضارة، دار العودة، بيروت، ١٩٨٥م، وكذا كتاب الشيخ محمد قطب : دروس تربوية من القرآن الكريم، المجموعة الإعلامية ومكتبة المأمون، جدة ١٤١١هـ .

السلطة في البلاد وبين المنحرفين ،عصابات وأفرادا ، استخدم فيها كل شيء نتصوره من رجال الأسطول لمراقبة الشواطىء ، منعا للتهريب ، إلى ضباط الطيران لمراقبة الجو ، بالإضافة إلى رجال البوليس على الأرض تعقبا للسكارى وللمهربين ، وبحثا عن المصانع السرية لذلك الوباء اللعين ، بالإضافة إلى الاستعانة بالإعلام في كل المجالات من الصحافة إلى الإذاعة أو من الكتب إلى النشرات ، ومن السينما إلى المحاضرات . . . الخ .

ويقدرون ثمن ما أنفقته الدولة - أمريكا - في الدعاية ضد الخمر بما يزيد على ستين مليون٠٠٠ , ٠٠٠ , ٦٠من الدولارات (كان ذلك في أوائل العشرينات من هذا القرن ، وذلك مبلغ رهيب بمعايير ذلك الوقت) وأن ما أصدرته من كتب ونشرات بلغ (عشرة بلايين) ٠٠٠ , ٠٠٠ , ٠٠٠ , ١٠ صفحة ، وما تحملته في سبيل تنفيذ ذلك القانون (قانون تحريم الخمور) في مدة أربعة عشر عاما لايقل عن (مائتين وخمسين مليونا) ٠٠٠ , ٠٠٠ , ٢٥٠ دولار . وقد أعدم في هذه المدة (ثلاثمائة) ٣٠٠ نفس ، وسجن ٣٣٥ , ٥٣٢ شخص ، وبلغت الغرامات (سته عشر مليونا) ٠٠٠ , ٠٠٠ , ١٦ من الدولارات ، وصادرت الحكومة من الأملاك مابلغ ٠٠٠ , ٠٠٠ , ٤٠٤ مليون دولار . ولكن كل ذلك لم يزد الأمة الأمريكيه إلا غراما بالخمر ، وعنادا في تعاطيها ، حتى اضطرت الحكومة إلى إلغاء قانون تحريمها عام ١٩٣٣م ، وإباحة تعاطيها إباحة مطلقة .(١)

وينتقل بنا الشيخ القرضاوي نقلة تاريخية مقارنة يحدثنا فيها عن العرب وعن غرامهم بالخمر ، وقد فعل ذلك قبله الشيخ أبوالحسن الندوي ، ولكن ليس بمثل هذا التفصيل ، يقول القرضاوي :

« لقد بعث محمد رسول الله وللخمر في المجتمع العربي سريان وانتشار ،

---

(١) أبو الحسن الندوي ، مرجع سابق ، ص١٧٧ .

تجري من نفوس أبنائه مجرى الدم ، يتمدحون بشربها ، ويفتنون في وصفها ووصف مجالسها وندمائها وأقداحها . . . ولم يعرف المجتمع الجاهلي إلا أفرادا معدودين على الأصابع عافوا شرب الخمر مروءة ، وسجل لهم التاريخ ذلك كمأثرة نادرة ، كزيد بن عمرو بن نفيل .

ومما يدل على اهتمامهم بالخمر أنهم وضعوا للتعبير عنها أسماء كثيرة وكتابات مختلفة ، وألقابا متعددة : المدامة - السلافة - الراح - الصهباء - ابنة العنقود - ابنة الكرم - بنت الحان - بنت الدنان . . . إلى آخر الأسماء التي بلغت أكثر من مائة . . !!

كما أن تجارتها عندهم كانت في نماء وازدهار . ومن أدلة شغفهم بها ، وتمكنها من نفوسهم ، أن كثيرا من الصحابة بعد أن نزلت الآيتان الأوليان في شأن الخمر : « قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس» (البقرة / ٢١٩) « لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى» (النساء / ٤٣) . . ولم يكن التحريم فيهما صريحا حاسماً ، لم يزالوا يشربون الخمر ، مادام في النص متسع لهم.(١)

ذلك أن الإسلام تدرج معهم في تحريم الخمر - رفقا بهم وتيسيرا عليهم - حتى نزلت آية المائدة الصريحة القاطعة « **يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ، فهل أنتم منتهون**» . (المائدة / ٩٠ - ٩١).

وهنا رأينا العجب . . رأينا الرجل يحطم كأسه ، ويسفك ماعنده من خمر في الطريق ، حتى تفيض طرقات المدينة بما كان عند الناس منها .

---

(١) يوسف القرضاوي، الإيمان والحياة، مرجع سابق، ص ص ٢١٩-٢٢٠ .

عن أبي سعيد الخدري قال : سمعت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يقول : « يا أيها الناس : إن الله يبغض الخمر ، ولعل الله سينزل فيها أمرا ، فمن كان عنده شيء فليبعه ولينتفع به» (وذلك قبل التحريم النهائي) . قال أبوسعيد : فما لبثنا إلا يسيرا ، حتى قال : « إن الله حرم الخمر ، فمن أدركته هذه الآية – يعني آية المائدة السابقة – وعنده منها شيء فلايشرب ولايبيع» . قال أبوسعيد : فاستقبل الناس بما كان عندهم منها طرقات المدينة فسفكوها أي صبوها وأسالوها – رواه مسلم) .

وعن أنس قال : كنت أسقي أباعبيدة وأبي بن كعب فجاءهم آت فقال : إن الخمر حرّمت . . فقال أبوطلحة قم يا أنس فأهرقها ، فأهرقتها . وعن أبى موسى الأشعرى قال : بينما نحن قعود على شراب لنا ونحن نشرب الخمر حلة – أى حلالاً– إذ قمت حتى آتى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فأسلِّم عليه ، وقد نزل تحريم الخمر: « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر» إلى قوله . . فهل أنتم منتهون» (المائدة / ٩٠-٩١) . . فجئت إلى أصحابي ، فقرأتها عليهم . . قال : وبعض القوم شربته في يده ، شرب بعضا ، وبقي بعض في الإناء . . فقال بالإناء تحت شفته العليا ، كما يفعل الحجام ، ثم صبوا مافي باطنهم فقالوا . . انتهينا ربنا . . !!

فهل رأت البشرية مثل هذا انتصارا على النفس ، وسرعة في الإستجابة وقوة في الانقياد للأمر ، مهما يكن مخالفا للعادات ، مصادما للشهوات .[1]؟؟ هذا ولقد أوردت هذا المثال تفصيلا حتى نتبين الفرق بين أمر يصدر من البشر فيقاومه البشر حتى يتراجع المشرعون وينقلبوا على رؤوسهم فيما اعتزموه ، وبين أمر يصدر من المولى

---

(١) المرجع السابق ، ص ص ٢٢٠-٢٢١ .

عـز وجل ، فيصـدع بـه المؤمنـون في لحظـات ، وسـوف يقـودنـا ذلك إلى مـايتعلق بالنسـاء، وبحقوق النساء ، وكيف صـدرت التشريعات بخصوصهـا من فوق سبع سماوات ، من لـدن حكيم خبير . . فـانصاع لها المسلمـون فـوراً ، خـاصة وقـد رأوا نبيهم الكريم ، صلى الله عليه وسلم ، يقود ركبهم في أكبر حـركة في التاريخ ، رعاية للمرأة ، وصـونا لكـرامتها ، وحفظا لمشـاعرهـا ، وحرصا على مصـالحها ، ومطـالبة لأصحابـه ، رضوان اللـه عليهم أجمعين ، بأن يقتدوا بـه ويفعلوا مثلـه ، بل إن هذه المطالبـة جاءت من اللـه عز وجـل ، حين قال لهم : « **لقد كـان لكم في رسـول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر**» (الأحزاب / ٢١).

والآن لعلنا نقوم سويا لنـرى كيف تغيرت مكانة المرأة من فوق سبع سماوات ، في آيات قرآنية تتلى على الناس إلى أن تقوم الساعة، وتبين لهم وضع المرأة في الإسلام ، وهي طفلـة يستقبلها أبـواها بـالحب والترحاب ، ثم وهي ابنـة ناضجـة يؤخـذ رأيها عندما تطلب للـزواج ، وكذا وهي زوجة ترعى أسرتها ، وتربى أجيـالاً للإسلام ، ثم وهي أم يحترمهـا الجميـع ويجلـونها في منـزلـة وضعهـا الـرسـول ، صلى اللـه عليـه وسلم، قبل الأب بمراحل .

أولاً :

مكانة المرأة بالنسبة للرجل :

كما سبق القـول في بعض فصـول هذا الكتـاب فإن الإسـلام قـد وضع المرأة في مكانة مسـاوية للرجل منذ الخليقة ، فقد قـال ، عز من قائل : « **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحـدة ، وخلق منها زوجهـا ، وبث منهما رجالاً كثيراً ونسـاءً ، واتقـوا اللـه الـذي تسـاءلـون بـه والأرحـام ، إن اللـه كـان عليكم رقيبـاً**» (النسـاء/ ١) ، كما قال عـز وجل : « **هـو الذي خلقكم من نفس واحـدة ، وجعل**

منها زوجها ، ليسكن إليها» (الأعراف / ١٨٩).

فالمرأة ، وكما يقول الشيخ محمد عرفة مساوية للرجل في الإنسانية ، حيث أن كلمة الناس تشمل في مفهومها ومدلولها الرجل والمرأة ، فهي مخاطبة ، كما هو مخاطب في هاتين الآيتين باعتبار خصوصية الإنسانية فيها . . . وهي أخت الرجل ، إذ تنسب هي وهو إلى أب واحد ، وأم واحدة : « **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا**» (الحجرات/ ١٣). فهو - سبحانه ينادى الجميع : «يا أيها الناس» معلنا أنه خلقهم من أب واحد وأم واحدة «إنا خلقناكم من ذكر وأنثى » ، فيقرر - بذلك - الأخوة ، أخوة النسب بين الرجل والمرأة ، فكل منهما شقيق الآخر وصنوه ، كما قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : «إنما النساء شقائق الرجال». (رواه احمد وأبوداود والترمذي عن عائشة ، والبزار عن أنس).

والأخوة على هذا ، تقتضي المساواة في الانتساب إلى الأبوين ، فلايكون أحد الشقيقين أوفر حظاً في النسبة إلى أبويه من الآخر ، فالمرأة على هذا مساوية للرجل في النسب إلى الأبوين . (١)

ويؤكد الشيخ محمد عزة دروزة على قضية المساواة بين الرجل والمرأة من آية أخرى من آيات القرآن الكريم ، حيث يقول بأن أول ذكر للأنثى ورد في سورة الليل : «**وماخلق الذكر والأنثى**» . (الليل / ٣) ، ففي جمع الذكر والأنثى في القسم قرينة على نظرة الله تعالى المتساوية لهما أولا ، أما بقية الآيات : «**إن سعيكم لشتى ، فأما من أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى ، وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى**» . (الليل/ ٤-١٠) ففي هذه الآيات تقرير لمبدأ تكليف الذكر والأنثى على السواء ، تكليفا متساوياً بكل مايتصل بشؤون الدنيا

---

(١) محمد بن عبدالله عرفة ، مرجع سابق ، ص ص٣٧-٣٨ .

والـدين ، ولمبدأ تـرتيب نتـائج سعى كل منهما، وفقـا للعمل الذي يصـدر عن كل منهما.[1]

وفي سورة الأعـراف نجد هـذه الآية : «هـو الذي خلقكم من نفـس واحدة ، وخلق منهـا زوجها ليسكـن إليها». (الأعـراف / ١٨٩) . . فهـذه الآية تنطـوى على تقريـر كون الـرجل والمرأة زوج يكمل أحدهما الـآخر ، وكونهما - بنـاء على ذلك - في مـرتبة واحـدة ، من ناحيـة الحياة الإنسـانية ، وكل مـافي الأمر أن لكل منهما وظيفـة تناسلية مختلفة عن وظيفة الآخر وحسب .

وفي سورة الـروم نقرأ : « ومن آيـاته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجـاً لتسكنوا إليهـا ، وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيـات لقـوم يتفكرون» (الـروم/ ٢١) . والآيـة تبين حكمة اللـه - سبحانـه وتعالى - في قيـام الحياة بين الـزوجين على أساس المودة والـرحمة ، ثم إن هذا المعنـى مدعـوم بقـوة وصراحة أكثـر في الآيـة : «ولهن مثل الـذي عليهن بالمعـروف» (البقرة/ ٢٢٨) والتي تعنى فيما تعنيـه أن كل مايحق للـزوج طلبه وانتظـاره من زوجتـه، من أمور مشروعـة ، من طاعـة . . وأمانـة . . وعفة . . وإخلاص . . وحسن معاشرة ومعاملـة . . ومودة . . واحترام . . وثقة . . وتكريم . . وبر . . وترفيه . . ومـراعاة مزاج . . ورعاية مصلحة . . وقضـاء حاجات . . . وعـدم مشـاكسـة . . وعنف وبـذاءة . . ومضارة . ومضـايقـة . . وأذى . . وسـوء خلق . . وتكبر . . وتجبر . . وازدراء . . . وتكليف مـالايطاق ، يحق للـزوجة طلبـه وانتظاره من زوجها[2] .

---

(١) محمد عزة دروزة، مرجع سابق.
وكـــذلك انظر : وهبي سليمان غاوجي : المرأة المسلمة ، دار القلم، دمشق، بيروت، ١٣٩٥هـ، ص٢٩ .
وأيضـــاً انظر : عبد الودود شلبي : في محكمة التاريخ، دار الشروق ، القاهرة -بيروت، ط ٣، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م، ص ص ٦٤-٦٥ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٣٠ .

ويبين البابطين أنه على أساس وحدة القيمـة الإنسانية بين الرجل والمرأة ساوى اللـه عـز وجل بينهم في أصـول التكاليف الشرعيـة ، ورتب على ذلك جـزاء واحـدا يتساوى فيه الرجل والمرأة ، سواء كان الجزاء ثوابا أو عقاباً .

ففي جانب الثواب قال اللـه سبحانه وتعالى : «**ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولايظلمون نقيرا**» (النساء/ ١٢٤)أما في جانب العقاب فقد قال سبحانه وتعالى : «**والسارق والسارقة فأقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا ، نكالاً من الله ، والله عزيز حكيم** » (المائدة / ٣٨) ، وقال سبحانه وتعالى : «**الـزانية والـزاني فاجلـدوا كل واحـد منهما مائة جلـدة ، ولاتأخذكم بهما رأفـة في دين اللـه ، إن كنتم تؤمنـون بـالله واليـوم الآخر ، وليشهـد عـذابهما طائفـة من المؤمنين** » (النور/ ٢)[1] .

وينظـر الشيخ مصطفى السباعي إلى الموضـوع من زاويـة أخرى ، وهي زاويـة إبعـاد التهمـة التي علقت بـالمرأة عبر الحضارات المختلفـة ، والتي مـؤداهـا أن المرأة كـانت هي السبب في الخروج من الجنة ، بـالنسبـة لها ولآدم معا . يقـول الله تعـالى : «**فأزلهما الشيطان عنها ، فأخرجهما مما كانا فيه**» (البقرة/ ٣٦) . ويقول عز من قائل : «**فـوسـوس لهما الشيطـان ليبـدى لهما مـاوري عنهما من سـؤاتهما**» (الأعـراف / ٢٠) . ويقول عن توبتهما معاً : «**قالا ربنا ظلمنا أنفسنا ، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين** » (الأعراف / ٢٣) .

بل إن القرآن في بعض آيـاته قد نسب الذنب إلى آدم وحـده ، فقال : «**وعصى آدم ربه فغوى**» (الأحزاب / ٣٥) . ثم قـرر القرآن مبدأ آخر يعفى المرأة من مسـؤولية

---

(١) أحمد بن محمد بن عبمد الله البابطين، مرجع سابق، ص ص ٥٩-٦٠ .

أمها حواء ، وهو يشمل الرجل والمرأة على السواء : «**تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ، ولكم ما كسبتم ، ولاتسألون عما كانوا يعملون**» (البقرة/ ٣٦)[١] .

ويقول العسال بأن الإسلام قد ساوى بين المرأة والرجل حيث وجه لها خطاب التكليف مثلها مثل الرجل سواء بسواء « **كل نفس بما كسبت رهينة**» (المدثر/ ٣٨).

والنفس تشمل الذكر والأنثى .

«**وأن ليس للإنسان إلا ماسعى** » (النجم/ ٣٩) .

والإنسان يشمل الذكر والأنثى ، ومن هنا أوجب الإسلام عليها ، كما أوجب على الرجل ، معرفة العقائد والعبادات ومعرفة الحلال والحرام في المأكل والمشرب وسائر التصرفات .[٢]

ويستدرك العسال « نعم رفع الإسلام عنها الإلزام ببعض التكاليف ، لا لأنها غير أهل لها ، ولو فعلتها لم تقبل منها ، ولم تثب عليها ، ولكن أبيح لها تركها تخفيفا عنها ، وترخيصا لها ، وبعدا بها عن مزاحمة الرجال ، وتفريغا لها في خدمة البيت والإشراف عليه ، ورعاية الأبناء ، وذلك كما في صلاة الجمعة والجهاد ، ولو أنها آثرت حضور الصلاة الجامعة ، أو دخلت الصفوف المحاربة لما كان عليها من حرج في الدين .[٣]

ويورد أحد الكتاب الآيات المبشرات في الآخرة ، بالنسبة للجنسين معا ، الرجل والمرأة ، دون تفرقة ، لأنها أنزلت من عند أحكم الحاكمين ، فنقرأ«**وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ومساكن طيبة في**

---

(١) مصطفى السباعي، مرجع سابق، ص ص ٢٥-٢٦ .

(٣) أحمد محمد العسال : الإسلام وبناء المجتمع، دار القلم، الكويت، ط٨، (بدون تاريخ)، ص ص ١٦٩-١٧٠ .

(٣) المرجع السابق، ص ١٧٠ .

جنات عدن ، ورضوان من الله أكبر ، ذلك هو الفوز العظيم » (التوبة / ٧٢).

وقال عز وجل : « ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ويكفر عنهم سيئاتهم ، وكان ذلك عند الله فوزا عظيماً» (الفتح/ ٥) وقال تبارك وتعالى : « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها ذلك الفوز العظيم » (الحديد / ١٢)[١].

ويفرق سيد قطب ، رحمه الله ، بين مكانة المرأة في الإسلام ، ومكانتها في الحضارات السابقة عليه ، حيث أن الإسلام بيّن وحدة الزوجين وتساويهما من الناحية الإنسانية ، ليقضى على جميع النظريات الخاطئة التي كانت تزعم أن المرأة جنس منحط بذاته عن جنس الرجل . .

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء» (النساء/ ١) ، كما عنى الإسلام ببيان وحدة الزوجين وتساويهما من ناحية علاقتهما بربهما وجزائهما عنده :

« فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض » (آل عمران / ١٩٥) .

« إن المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات ، والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والخاشعين والخاشعات ، والمتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهم والحافظات، والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيماً»

---

(١) أحمد اسماعيل المقدم(جمع وترتيب) عودة الحجاب(القسم الثاني) المرأة بين تكريم الإسلام وإهانة الجاهلية، دار طيبة، الرياض، (بدون تاريخ)، ص ص ٦٨- ,٦٩

(الأحزاب / ٣٥)[١].

ثم فيما بين الرجل والمرأة ، وبعد أن ثبت تساويهما ، عنى الإسلام ببيان نوع الصلة بين شقى النفس الواحدة ، وأهداف هذه الصلة المتنوعة ، سواء ما يختص منها بالزوجين ، وما يختص منها بالمجتمع الإنساني كله . .

« **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة** » (الروم / ٢١).

« **هن لباس لكم وأنتم لباس لهن** » (البقرة/ ١٨٧).

« **نساؤكم حرث لكم ، فأتوا حرثكم أنى شئتم** » (البقرة / ٢٢٣)[٢].

وكأني بشهيد الإسلام ، رحمه الله ، يريد أن يذكر القارئ المسلم ، حين تحدث عن «النظريات الخاطئة» التي تعلقت بوضع المرأة قبل الإسلام ، يريد أن يعيدنا إلى الخلفية التاريخية التي سبق وبيناها قبل ذلك ، حين كانت المرأة ممتهنة في معظم المجتمعات ، بل حين كانت منزلتها هابطة ومحتقرة في عدد غير قليل من هذه المجتمعات لدرجة أنها بيعت فيها ، كأى سلعة أخرى ، بل ربما أقل . . !!

وليس ذلك في مجتمعات أو حضارات ماقبل الإسلام فقط ، ولكنه حدث في أوروبا في عصور قريبة ، حيث بيعت امرأة بشلنين (!!) ففي عام ١٧٩٠م بيعت امرأة في أسواق إنجلترا بشلنين ، لأنها ثقلت بتكاليف معيشتها على الكنيسة التي كانت تؤويها[٣] . . !!

ومن الطريف والمحزن في الوقت نفسه أن نذكر أن القانون الإنجليزي حتى

---

(١) سيد قطب : الإسلام ومشكلات الحضارة، دار الشروق، القاهرة - بيروت، ط ١١ ، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م، ص ص ٦٢-٦٣ .

(٢) المرجع السابق، ص ٦٣ .

(٣) محمد علي البار، مرجع سابق ، ص ٢٣ .

open-kandil.com

عام ١٨٠٥م كان يبيح للـرجل أن يبيع زوجته ، وقد حدد ثمن الزوجـة بستة بنسات (!!) فقد حدث أن باع إنجليزي زوجته عام ١٩٣١م بخمسمائة جنيه وقال محاميه في الدفاع عنـه : إن القانون الانجليزى قبل مائة عام كـان يبيح للزوج أن يبيع زوجته ، وكان القانون الانجليزى عام ١٨٠١م يحدد ثمن الزوجة بستة بنسات ، بشرط أن يتم البيع بمـوافقة الـزوجة ، فأجـابت المحكمة بأن هـذا القانـون قد ألغي عـام ١٨٠٥م بقانـون يمنع بيع الـزوجات أو التنازل عنهـن ، وبعد المداولة حكمـت المحكمة على بائع زوجته بالسجن عشرة أشهر .

وقد حدث أن باع إيطالي زوجته لآخر . . على أقساط (!!) فلما امتنع المشترى عن سداد الأقساط الأخيرة قتله الزوج البائع[١] ، لقد ارتدت أوروبا إلى الوراء آلاف السنين وانتكست إلى ما كان يمارسه الأشوريون والبابليون[٢] .

ونقطة هامة هنا نحب أن نختم بها هـذا الجانب المتعلق بالمساواة بين الرجل والمرأة والتي قلنا فيهـا إنهما متساويان ، وأن المرأة لاتتحمل وحـدها وزر عصيان اللـه ، عز وجل ، في الجنـة ، بـالأكل من الشجـرة المحـرمـة . ولقـد أثبت العلماء ، وبينـوا بـالنصوص القـرآنيـة أن المرأة لم تكن وحدهـا في هذه المعصيـة ، وإنما شـاركها فيهـا الرجل وليـس هذا فحسب ، بل إن بعضهـم ، ومن خـلال النص القرآني ، يـؤكد أن الرجل هو المسؤول الأول : « وعصى آدم ربه فغوى » (طه / ١٢١) .

مايهمنـا هنا هـو أن التهمة التي ألصقت بـالمرأة في الحضارات القـديمة ، وفي نصوص الديانات المحرفة ، والتي عوملت المرأة – ظلما – على أساسها ، هذه التهمة أزيحت عن كاهل المرأة في الإسلام ، حيث نزلت آيات القرآن الكريم لتؤكد أنها ، أي

(١) عبد الودود شلبي ، مرجع سابق ، ص ٦٢ .

(٢) محمد بن سالم البيجاني : أستاذ المرأة ، مكتبة التراث الإسلامي ، القاهرة ، ١٩٨٩م ، ص١٥ .

المرأة ، لم تكن هي السبب في الخروج من الجنـة ، ومن ثم الهبـوط إلى الأرض ، وإنما هي كانت شريكة للرجل ، وربما تابعة لـه ، ومن هنا فلا ينبغي تحميلها المسؤولية إلا بمقدار مـافعلته ، وليس هـذا فحسب ، إنما ذلك أمر كـان وانتهى حيث تـاب الله عليهما ، ولا ينبغى علينا نحن البشر من أبناء أدم وحـواء أن نحاسبهما على الأرض مما تاب الله عليهما منه من قديم الزمان .

إن هذا الجانب – في حقيقـة الأمر – لما يـرتفع بمكانـة المرأة في الإسلام بشكل غير مسبوق ، ولاهـو كذلـك ملحوق ، في الحضارات الأخـرى ، فمنذ أعلـن القرآن العظيم ، على لسـان النبي المرسل ، صلى اللـه عليــه وسلم ، الآيـات الـدالـة على ذلك، لم نقرأ في تـاريخنا الإسلامي كلـه من عاد وكـرر أن المرأة كانت هي السبب فيما جرى لآدم (الرجل) ، وبالتالي الجنس البشرى كله على الأرض بسبب خطيئتها هي .

أما لماذا لم يحدث هـذا عند المسلمين ، وطـوال تاريخهم ، أي لأكثـر من ألف وأربعمائة عـام فـالسبب هـو الـذي أوردنـاه مـن قبل ، والمتعلق بـالفـارق الـواضح والصريح بين مجتمع المسلمين والمجتمعـات الأخرى ، ونقصد بـه قضية التعـامل مع تعـاطي الخمـور ، فـاجتهـادات البشر في الـولايـات المتحـدة الأمـريكيـة لم تفلح في معالجتها ، واضطرت الدولة بكـل عنفوانها وجبروتها وسلطتها وإمكاناتها . اضطرت أن تخضع للسكيرين والعربيدين ولأصحاب مصانع الخمور بطول أمريكا وعرضها .

أما في مجتمع المسلمين الأول ، وعلى عهـد رسول الله ، صلى اللـه عليه وسلم فقـد كفاهم آيـة واحدة من القـرآن الكريم ، نـزل بها الروح الأمين ، على قلب سيـد المرسلين ، وأذيعت على مجتمع المؤمنين ، دون تحذيـر ، أو ترهيب أو وعيـد، فقط : فهل أنتم منتهون . . ؟؟ وتكون الاستجابة الفـورية ، بل اللحظية والعملية هي إراقة الخمور في شوارع المدينة . . و . . انتهينا يارب . . !!

نمـوذج تربـوي رائع لمجتمع مـؤمن مطيع للـه ورسولـه ، بشكل لم يعـرف في تـاريخ البشر . هــذا المجتمع ذاتـه حينما قيل لـه بأن المرأة لم تكـن هي التي قـادت العصيان في الجنة ، وأنها كـانت شريكة فقط ، وربما تابعة للـرجل في هذه الخطيئة ، لم يكرر ماكان يقال في السابق عن تحميلها مسؤولية الخروج من الجنة ، ومن ثم الهبوط على الأرض ، وإنما – وهو المجتمع الـذي رباه رسوله ، صلى الله عليـه وسلم – تفرغ لأمور أخـرى كثيرة خاصة بالمرأة ومعـاملتها وتربيتها ، ولعلنـا ننتقل إلى معالجة بعض هذه الجوانب .

ثانياً: تغير مكانة المرأة في الإسلام ..بالتربية :

إن هذا العنوان الـذي قد يبدو بسيطا في نظـر البعض يشتمل على ثلاثة محاور أسـاسيـة هي : التغير ، ومكـانـة المرأة في الإسلام ، والتربيـة . أمـا مكـانـة المرأة في الإسلام فهي المحور الأساسي الذي تدور حوله هذه الدراسة كلها ، ويبقى بعد ذلك محورا : التغير ، والتربيـة ، وسـوف نحاول تنـاولهما بشيء من التفصيل ، ثم نـربطهما بعد ذلك – إن شاء الله – بمكانة المرأة في الإسلام ★ .

أ – محور التربية :

منـذ وجـدت المجتمعـات البشريـة على وجـه الأرض وهي تتخـذ من التربيـة وسيلـة لتنشئة أفـرادهـا ، وللعمل على تكييفهم مع البيئـات المحيطة بهم . البيئـات الطبيعيـة ، والبيئـات الاجتماعيـة . والتربيـة – بهذا المعنى – قـرينـة الحيـاة ، بل إن البعض يقول بأنها هي الحياة ذاتها.

(★) حينما نتحدث عن مكانة المرأة في الإسلام، والتي تبوأتها بعد أن سطعت شمسها لانقصد بذلك حقوقها التي قـررتها لها الشريعة، من حيث كونها ابنة وزوجة وأما فتلك الأمـور تناولتها كتب كثيرة، بعضها ذكر في هـذه الدراسة، وإنما نقصد «بالمكـانة» ماوصلت إليها المرأة بـالتربية في ظل الإسلام، وكانت تربية الرسول، صلى الله عليه وسلم، في المقام الأسمى منها .

فمنذ اللحظات الأولى لميلاد الأطفال تتولى أسرهم العناية بهم ، كي يتوافقوا مع المجتمع الصغير المحيط بهم في نطاقها ، وكذا مع المجتمع الخارجي ، كي يستطيعوا التعامل مع أفراده وجماعاته ومؤسساته ونظمه ، لأن العيش في خضم تياراته ليس بالهين ولا بالبسيط . ولأن التربية تحتل موقعا خطيراً في حياة المجتمع - أي مجتمع - فإنها لم تترك للأسرة وحدها ، ولا للأفراد ، و إنما تدخلت فيها الجماعة ، أو المجتمع ، وألقت وراءها بثقلها .

إن مايميز أفراد مجتمع عن أفراد مجتمع آخر هو ثقافة ذلك المجتمع ، ونوع التربية السائدة فيه . لايميزهم غناهم أو فقرهم ، ولاتميزهم ألوان عيونهم ، أو أشكال أجسامهم طولا أو قصرا ، وإنما تميزهم التربية التي يتلقونها ، والتي تجعل منهم أشخاصا ذوى هوية معينة ولون محدد . وكمثال على مانقصده فإننا حينما نذكر المجتمع الياباني هذه الأيام فإنه لايقفز إلى أذهاننا إلا العلم والتكنولوجيا والتقدم والاختراع والعمل الدءوب ، وكل أولئك نواتج للتربية ، ويغيب عنا - بطبيعة الحال - لون الياباني، وباقي صفات جسمه ، بل وحتى تغيب عنا أرضه ومناخ بلده ، وأي شيء آخر.

وللمحافظة على بقاء الجماعة واستمرار وجودها فإن المجتمعات تحرص على أن تلقن الصغار من أفرادها أساسيات ثقافاتها* ، ومبادىء تربياتها ، حتى يخرجوا إلى الحياة وهم متماسكون اجتماعياً وثقافياً ، بحيث لاتسهل إذابتهم في مجتمعات أخرى، وبحيث يقاومون ما قد يتعرضون له من ضغوط قد تقع عليهم، سواء كانت من جانب الطبيعة وعواملها ، أو من جانب المجتمعات المحيطة بهم ، والتي قد

(★) يمكن -لمن أراد- مراجعة كتاب المؤلف : الثقافة . . والغزو الثقافي لدول الخليج العربي، العبيكان للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م.

تطمع فيما عنـدهم من خيرات أو ثـروات ، أو من جـانب وسـائل الإعـلام الحديثـة الموجهة نحوهم ، بقصد إذابتهم ، ومن ثم إذابة إرادتهم ، أو على الأقل التأثير فيها .

والتربية – بناء على هذا الأساس– عمليـة مستمرة ومرادفة للحياة ذاتها ، فهي تبدأ مـع الإنسان ، منذ ولادتـه ، بل وحتى قبلها ، وهـي – كذلك– تتم معـه طيلة أيـام عمـره ، ولاتنتهي أو تتوقـف إلا مع انتهاء تلك الحيـاة . ولعل هـذا المعنى هـو الذي كـان – ولايزال – وراء عنايـة الإسلام واهتمامه بـالطفولة والتنشئـة الاجتماعية ، حتى قبل الزواج ، عمـلا بحديث الرسول ، صلى اللـه عليه وسلم ، تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس » . ولقد حرص الإسلام على العنـاية بالأطفال منذ ميلادهم ، بل لقد شملت عنايته مرحلة ماقبل الميـلاد حين دعا إلى اختيار الزوجة الصالحة ، لتكون أما صـالحة ، توفـر المناخ الطيـب ، والبيئة الملائمة لتربيـة الطفل ، وأيضـا برعـايته والعناية بصحته الجسمية والنفسية . (١)

وعلى ذلك فإن التربية عبارة عن عملية تشكيل لشخصيـة الفرد ، ولبناء حياته داخل الإطـار الـذي ارتضته الجماعـة لنفسهـا ، والذي وضعـت معاييره، وحـددت ضـوابطـه ، ، وهــذه العمليـة تبـدأ مع الإنسـان طفــلاً يتشرب القيم والاتجاهـات والتصـورات من والديـه ، ثم ينمو الطفـل ويحتك بالأقـارب والجيران ، فتزيـد دائرة احتكاكـاته ، ثم يذهب إلى المدرسـة ، إن كان هناك تعليم مـدرسي ، فتتسع الدائرة أكثر وتستمر التنمية الأيديولوجية ، حيث تصقل تلك القيم والاتجاهات وتتبلور. (٢)

ويقول سويفت (Swift) إن التربية هي الطريقة التي يتمكن الفرد بواسطتها

---

(١) حسن عبدالعال : التربية الإسلامية في القرن الـرابع الهجري، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٨م، ص ١٠٥ .

(٢) عبدالغني عبود: الأيديلـوجيا والتربية ، مدخل لدراسة التربية المقارنـة، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٢، ١٩٧٨م، ص ص٢٦-٢٧ .

من أن يكتسب الكثير من القدرات البدنية والأخلاقية والاجتماعية التي تتطلبها الجماعة التي ولد بها ، والتي يجب أن يعمل فيها . ويسمى علماء الاجتماع هذه العملية بالتطبيع الاجتماعي ، أو التنشئة الاجتماعية Socialization . وترجع قيمة هذا المصطلح وأهميته إلى سببين : فهو يؤكد - في المقام الأول - على أن التربية عملية اجتماعية ، تحدث في إطار اجتماعي ، وثانيا أنها تتم بالطرق التي تتطلبها قوانين الجماعة . (١)

ومعروف أننا لانستطيع - كما يقول «جونسون Johnson » - أن نتحدث عن «الطفل الوليد» أو الرضيع ، وذلك ببساطة لأن ذلك الرضيع لايمتلك الشخصية بالمعنى الصحيح ، إذ أنها عبارة عن نظام داخلي معقد ، وبعبارته Acomplex Innersystem يمثل العالم الخارجي بعد أن يحتك به الطفل ويتفاعل مع عوامله . (٢)

وهذا الكلام يقودنا إلى عملية «التطبيع الاجتماعي» التي حدثنا عنها «سويفت» والتي هي من أخطر المهام التي تقوم بها الجماعة تجاه أفرادها الجدد من الناشئين حتى يستطيعوا أن يتكيفوا مع أعضاء الجماعة المحيطين بهم ، وأن يتوافقوا مع ما اصطلح عليه أفراد المجتمع ، وبالتالي فإن هذه العملية - عملية التطبيع الاجتماعي - عملية تربوية بالدرجة الأولى ، يتمكن الفرد ، أو الناشيء الجديد ، من خلالها ، من القيام بالأدوار الاجتماعية الجديدة عليه ، والمطلوب منه القيام بها .

إن التربية تعني ، على وجه اليقين ، بالسلوك ، وتنميته وتطويره وتغييره

---

(١) د. ف سويفت : اجتماعيات التربية ، دراسة تمهيدية تحليلية ، ترجمة محمد سمير حسانين ، مؤسسة سعد للطباعة ، طنطا ، ط٢ ، ١٩٧٧م ، ص١٦ .

(2) Robert R.Bell (Editor) Hary M. Johnson : Socialization in the sociology of Education, Temple University, The Darsy Press Inc, Home wood Il, 19662, P.86.

(بطبيعة الحال نحو الأفضل) أي أن هدفها أن تنقل إلى أفراد الجيل الجديد المهارات والمعتقدات والاتجاهات وأنماط السلوك المختلفة التي تجعل منهم مواطنين صالحين في مجتمعهم ، ومتكيفين مع الجماعة التي يعيشون بينها . (١)

ويركز بعض المفكرين التربويين على أن مهمة التربية هي أنها تهتم بالدرجة الأولى بتنمية الشخصية ، داخل الإطار الاجتماعي الذي توجد فيه هذه الشخصية وتتفاعل . والمفهوم الذي يأخذون به فيما يتعلق بالشخصية هو أنها « كل منظم شامل يتضمن الصفات الجسمية والعقلية والانفعالية والروحية ، كما يتضمن الخلق والمزاج اللذين يعتبران أجزاء من شخصية الفرد . (٢)

وفي بعض كتابات هتشنز Hutchins نجده يركز على أن التربية تهدف ضمن ماتهدف اليه - إلى تنمية قوى الإنسان العقلية Inlellecual والأخلاقية Moral ، وكذا القوى الروحية Spiritual Powers وبما أن جهة و احدة من المجتمع، أو مؤسسة واحدة ، كالمدرسة مثلا ، لاتستطيع أن تنمى كل تلك القوى، فإن العديد من المؤسسات كالمدرسة والمنزل والمؤسسات الدينية يجب أن تعمل جميعا معا، في تناسق وتعاون كي تحقق هذه الجوانب في الإنسان ، وكي تعمل على تنميتها . (٣)

والتربية في النهاية عبارة عن عملية مجتمعية خاصة جداً بالمجتمع الذي تعمل فيه وله ، بل إنها لمن أخص خصوصيات ذلك المجتمع ، أي أنها تنبع ، أو ينبغي أن

---

(١) محمد لبيب النجيحي : الأسس الإجتماعية للتربية، الأنجلو المصرية، القاهره، ط٧، ١٩٧٨م، ص٩ .

(٢) أ.ك. أوتاواي : التربية والمجتمع ، ترجمة وهيب سمعان وآخرين، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٠م، ص٥ .

(٣) المرجع السابق.

تنبع ، من ظروف ذلك المجتمع ، ومن أحواله التي تحيط به ، والتي تلف أفراده ، سواء كانت سياسية ، أو اقتصادية ، أو اجتماعية ، أو ثقافية . . الخ فهي – إذن – عملية مجتمعية (Societal) بالدرجة الأولى ، وبالتالي لايصلح فيها النقل أو الاستيراد من مجتمعات أخرى ، بل هو على وجه اليقين لايجوز.(١)

ب – **محور التغير :**

يعتبر **التغير** سنة من سنن الله الكونية ، كما أنه حقيقة أزلية من حقائق هذا الكون الذي نعيش فيه ، والتي يتقبلها الناس في كل أنحاء العالم ، تقبلهم للحياة ذاتها ، ولما يقع لهم فيها . ومنذ خلق الله ، جلت قدرته ، هذا الكون وهو في حركة دائبة لاتهدأ ولاتفتر ، ولنا في الظواهر الطبيعية خير دليل على ذلك .

إن نوعية الحياة على ظهر الأرض تتغير ، فحيوانات اليوم التي نعرفها والتي نستأنسها غير حيوانات الأمس البعيد ، تلك التي لانعرف منها إلا صورها في المتاحف كالديناصورات والماموث . . وغيرها .

ومناخ الكرة الأرضية الذي نعيشه اليوم ، ونعرف قوانينه ، مختلف كلية عن أنواع المناخات التي سادت قبل الآن ، بل قبل ملايين السنين ، حيث كانت أجزاء كبرى من منطقتنا العربية الصحراوية الآن – على سبيل المثال – جزءا من قاع البحر فترة ، وغابات كثيفة فترة أخرى ، هكذا يقول لنا علماء الجغرافيا التاريخية وهم يفسرون لنا أسباب وجود البترول في شبه جزيرة العرب ، والإرسابات البحرية في مناطق تبتعد مئات الكيلومترات عن شاطىء البحر . . مثل صعيد مصر . . ! !

وحتى في باطن الأرض ، نجد أن الحركة لاتهدأ ولاتتوقف ، ومانشعر به على ظاهرها ، مما يتم في باطنها ، يبين لنا ، إلى حد ما ، بعض مايجرى في ذلك الباطن

---

(١) محمد عبد العليم مرسي : الأصول الإسلامية للتربية ، (قيد الإنجاز) .

من حركات وتغيرات لانرى منها إلا بعض مظاهرها ، حين نفاجأ بثوران بركاني عنيف ، أو بهزات زلزالية مدمرة. [1]

وإذا كان هذا هو حال الجوامد التي نتصورها هادئة ، بينما هي غير ذلك تماما ، فإن حياة البشر على سطح الأرض لم تعرف الثبات أو التوقف على حالة واحدة ، منذ خلق الله - جلت قدرته - آدم عليه السلام ، وحمله الأمانة .. هو ومن أتى بعده من ذريته ، وسوف تظل كذلك حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، يوم تقوم الساعة بأمره تعالى .

ومنذ وجدت المجتمعات البشرية على سطح الأرض ، وهي في حركة دائبة دائمة لاتهدأ ولاتكل ، فتارة يكون التغير الذي يقع بينها نتيجة لعوامل طبيعية خارجة عن إرادتها ، كأن يتغير مناخ المنطقة التي تعيش فيها الجماعة ، فتضطر أن تنتقل وترحل إلى منطقة أخرى ، طلبا لمناخ أكثر ملاءمة ، وبيئة أفضل مناسبة.

أو قد يجف مصدر المياه الذي تعتمد عليه الجماعة ، فيتغير نمط حياة أفرادها ، مما قد يضطرهم إلى تعديل أوجه نشاطهم الاقتصادي ، ويتبع ذلك تعديل وتغيير في نظمهم الإجتماعية والاقتصادية .

وقد يكون التغير ناتجا عن نشاط الإنسان ذاته وحركته التي لاتتوقف ، فلقد غيرت الكشوف الجغرافية - على سبيل المثال - حياة الشعوب في غرب أوروبا ، حيث فاضت عليهم وعلى دولهم الخيرات العميمة التي جلبت إليهم من البلاد التي اكتشفوها ، فازدادوا غنى وثراء ، وتغيرت صور الحياة في مجتمعاتهم تغيرا جذريا .. نحو الأمام ونحو الأفضل .

وفي الوقت ذاته فإن الشعوب صاحبة الأراضي المكتشفة ، أو المنهوبة بمعنى

---

(١) محمد عبد العليم مرسي : التربية ومشكلات المجتمع في دول الخليج العربية ، دار الإبداع الثقافي، الرياض، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م، ص٥١ .

obeikandi.com

أصح ، في كل من آسيا وإفريقيا والأمريكتين ، أصابها تغير من نوع آخر، حيث سلبت حرياتها ، ونهبت أراضيها ومصادر ثرواتها ، بل وتحول أفرادها إلى عبيد ، في أوطانهم ، لا وظيفة لهم ولا عمل إلا أن يسدوا حاجة المستعمرين الجدد إلى الثراء وإلى الاستهلاك ، بل إنه قد نقل منهم ملايين رغم إرادتهم ، من أوطانهم في إفريقيا، كي يخدموا المستعمرين البيض في مزارع أمريكا الشمالية ، خاصة في الجنوب .(١)

وإذا ركزنا حديثنا على منطقتنا ، فإن رسالة النبي الأمين محمد بن عبدالله ، صلى الله عليه وسلم ، قد جاءت لتغيير حياة الناس بشكل سريع لم تعرفه المجتمعات البشرية من قبل ، فلقد انتقل المجتمع الجاهلي من عادات وتقاليد وقيم ومعايير لا أساس لها إلا الكفر والشرك والإلحاد ، إلى عادات وقيم ومعايير أساسها وحدانية الله ، سبحانه وتعالى ، ومصدرها سنة النبى ، صلى الله عليه وسلم، والتي رُبى على أساسها مجتمع طاهر نقى ، لم يسبق للبشرية أن عرفت له مثيلاً.

مجتمع بشرى جديد تماما ، يتعامل أفراده على أساس جديد ، أو أسس جديدة تماما ، تختلف عن كل الأسس التي سبقته ، ولم يحدث عبر سنى التاريخ البشرى أن لحقه مجتمع آخر ، في شرق أو في غرب ، في قيمه ومثله ومعاييره.

مجتمع يحب الفرد فيه لأخيه مايحب لنفسه ، بل ويؤثره عليها. مجتمع يتآخى فيه المسلمون ، من مهاجرين وأنصار ، حتى لينزل الرجل منهم لأخيه عن أخص خصوصياته . . !!

مجتمع يحرص كل فرد فيه على تنفيذ تعاليم المولى ، عز وجل ، بحذافيرها ، كما يحرصون على حب الرسول لهم . . أكثر من أنفسهم ، ولا يبيت فرد منهم وفي

---

(١) المرجع السابق ، ص ٥٢ .

نفسه أي شيء من أخيه ، إلا أن يكون خيرا . .

مجتمع تقي . . نقي . . طاهر ، يخطىء الرجال فيه ، أو بعض الرجال ، فيعترفون بأخطائهم أو خطاياهم للرسول ، صلى الله عليه وسلم ، فيطلب من أصحابه مقاطعتهم فيطيعونه ، وتضيق الأرض على المخطئين بما رحبت . . بل تضيق عليهم أنفسهم ، من شدة المقاطعة ، وعذاب العزلة الاجتماعية ، ثم يعفو عنهم القوى القاهر والتواب الغفور من فوق سبع سمٰوات . . ويتوب ، فيجري إليهم إخوانهم مبشرين . . وهم يبكون فرحا .

مجتمع تقي . . نقي . . طاهر . . مطهر . . تخطىء فيه امرأة ، فتذهب الى سيد الخلق أجمعين تعترف بذنبها . . فيراجعها - رسول الرحمة - ﷺ ، عساها لم تمض في الشوط إلي نهايته ، فتصر على الصدق . . والصدق كاملا ، وهي تعرف هول العقوبة ، وفداحة التنفيذ . .

ويراجعها النبي ، صلى الله عليه وسلم ، ثانية . . وثالثة . . عساها تتزحزح لكن الإيمان ذا الجذور العميقة والقوية يحول بينها وبين الكذب . . أخطأت فلتكفر عن خطئها . ولو بحياتها . ويتم التنفيذ بأيدى المؤمنين ، وطلبت حين احتر عليها قذف الحجر أن يعيدوها للرسول الأمين ، فلا يستجيبون وتذهب إلى ربها . . طاهرة مطهرة .

ويعود الصحابة الذين شهدوا عملية إقامة الحد عليها ، ويقص بعضهم على النبي ، صلى الله عليه وسلم ، خبرها حين طلبت إعادتها للمصطفى الكريم ، فيقول لهم ما معناه «ليتهم عادوا بها ، ثم يخبرهم بأنها تابت توبة وسعت أهل الأرض . . !!

ياالله . . أية تربية هذه . . ؟ وأي إيمان أديا إلي انصهار الفرد العربي في بوتقة

هـذا الإسـلام العظيم . . ؟ وأي تغيير هذا الـذي أصـاب ذلك الإنسـان . . ؟ تغيير جعله ينقلب إلى بشر مـن نوع جديـد في سنوات قـلائل ، ويأتيه الثنـاء عليه من رب العبـاد ، مـن فـوق سبع سمــوات : «كنتم خير أمـة أخــرجت للنـاس ، تـأمـرون بالمعروف، وتنهـون عن المنكر » (آل عمران/ ١١٠) ، وصدق اللـه العظيم ، أصدق القائلين .

وكـان حقـا على التـاريخ أن يتوقـف ليشهد بـزوغ حضـارة ذات قيم ومعـايير وتقاليد اسـاسها تعاليم القرآن ، وسنة الرسـول ، عليه افضل الصلاة وأتم التسليم، وكان حتما أن يتغير العالم . . من حولهم . . بعد أن تغيروا هم . . من داخلهم .

وتحولت شبه الجزيرة العربية إلي بيئة حية . . خصبة . . نشيطة . . مصدرة ، تصدر الخير لمن حـولها . . في كل اتجاه ، وكـان مركـز الإشعاع الحضـاري الجديد في المدينـه المنورة ، حيث كـان خيط النـور الإلهي لايـزال مستمرا في الهبـوط علي النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وحيث كانت صناعة الرجال تتم في كل لحظة .

ولقد كان هذا التغيير إيذانا بـدخول العرب ، ومن أسلم بعدهم من الشعوب الأخرى ، إلى حلبة صناعة التاريخ البشري ، صنـاعة الحضارة الجديدة ، والتي صار العرب روادا لآفاقها ، بفضل مـا نفخ فيهم هذا الدين العظيم من روح دفعتهم للعلم . . والعمل . . وبذل الجهد ، حتى دانت لهم امبراطوريـات كبري كانت عزيزة على مر الزمان .

وشهـد التـاريخ في منطقة البحـر المتـوسط، قلب العـالم الذي كـان معـروف آنذاك، نشـاطا علميا عمليـا مستندا إلى تعاليم القرآن الكـريم ، وتربية وتـوجيهات النبي الأمين ، صلى اللـه عليـه وسلم ، نشاط لم يسبـق أن شهده التـاريخ بـاعتراف علماء الغـرب أنفسهم ، من حيث قـوتـه وسرعتـه . . وعظمة إنجـازاتـه . . وروعـة

إبداعاته .

وفي هذه الفترة من التاريخ والتي كـان نجم العرب والمسلمين جميعا من حولهم يسطع تألقـا ، بفعل الـدين الجديد ، في أنفسهـم وشخصياتهم ، ومجتمعـاتهم ، في هذه الفترة ، بالتحديد ، كانت أوروبا تعيش فترة تخلف حضاري خطير بل مظلم ، حتى أطلقوا هم أنفسهم علي حقبـة منها شـديدة التدهـور مرحلة «العصـور المظلمة The Dark Ages .

ولقد كـانت الكنيسة ورعاتها من القسـاوسة خلف هذا التخلف إلى حـد بعيد حيث تـدخلوا في حـرية الإنسـان الأوروبي ، وفي فكـره ، في الوقت الـذي كان فيـه العقل المسلم يحلق حرا طليقـا في جميع آفاق العلم والفكـر الرحبة يبتـدع . . ويبتكر . . يضيف . . ويكتشـف . . يخترع . . ويطبق ، في كل مجال ابتــداء مـن الطب . . إلى الفلك ، ومن الكيمياء إلى الـرياضيات ، ومن الهندسـة إلى الجغرافيا والاجتماع والتربية . . الخ .

في هذا الـوقت كانـت الكنيسة تطـارد العلماء والمفكرين في أوروبـا وتحجر على آرائهم وأفكـارهم ، بل وتقيـم لهم المحـاكمات ، وتـدين بعضهم فتضعـه خلف القضبان الحديـدية سجينـا ، وتقسو على البعض الاخـر ، وتحكم عليه بـالموت شنقا حينا . ومحروقا أحيانا أخرى . . !!

وحيث أن دوام الحال من المحـال ، كما هو معـروف ومسلّم به ، فقـد جاءت فترة من التغير جديـدة ، حيث ابتعد المسلمون عن المنبع الصافي الأصيل الـذي كان سبب تقـدمهم وتحضرهم ، ونقصـد بـه الـدين الإسـلامي العظيم ، وذلك حين شغلتهم توافـه الامور ، وبعد أن طلّقوا العلم التجـريبي ، وحين انحلت عزائمهم ، وانفكت عـرى وحـدتهم ، وحين صرخ فيهم صـارخ بفصل الـديـن عن الحيـاة ،

فأخلدوا إلى الأرض ، وخسروا الاثنين معا : الدين ، والدنيا . . جزاء وفاقا .

وكان التخلف هـو النتيجة الطبيعية والمنطقية لكل ذلك ، فأخـذ الظلم يسود حيـاتهم ، ويلفهـا لفا ، بفعل عـوامل كثيرة ، بعضهـا داخلي فيما بينهم ، وبعضهـا الآخر خارجي من فعل أمم أخرى أضمـرت لهم العداوة والبغضاء فتناوشتهم من كل مكان ، وتداعت عليهم كما تتداعى الأكلة على قصعتها -تماما- كما جاء في حديث رسول الله ، صلى الله عليه وسلم .

فمنـذ انقضت الحروب الصليبيـة بين المسلمين ودول أوروبا المسيحيـة ، وعلى الرغم مـن الهزائم التي منى بها الأوروبيون ، إلا أنهم لم ييأسـوا ، ولم يكلوا أو يهدأوا ، وظلـوا يكيلون للمسلمين الضربـات تلـو الضربـات ، حتى استطاعـوا -أخيراً- أن يلتفوا من حولهم ، خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين في أعقاب ما سمي بحركة الكشوف الجغـرافية ، فجاؤوهم من أسفل منهم ، من الجنوب ، من الخليج العـربي والمحيط الهندي ، ومن مـدخل البحـر الأحمر الجنوبي ، كما جـاؤوهم بعد ذلك من البحر المتوسط في الشمال . من فوقهم . . !!

وسقطت الـدول الإسلاميـة ، واحـدة بعد الأخـرى ، أمـام القوى الأوروبيـة العـاتية الجديـدة التي استفـادت كثيرا من سبـات العرب والمسلمين جميعـاً ودعمت نفسها بالعلم وتطبيقاته ، بعد أن ترجمت أعمال المسلمين العلمية . . في كل مجال .

وظهرت على خـريطة العالم السيـاسة الجديدةإمبراطـوريات استعمارية حـديثة حلت محل الإمبراطورية الفـارسية وقرينتها الرومـانية ، وبدأ العالم يعرف ألوانـا غريبة من الاستعمار والاضطهـاد والاستنـزاف ، وقـد حمل هـذه الألـوان إلى بـلاد العـالم الأوروبيـون وكـان معظمهم من الإنجليـز والفـرنسيين والألمان والإسبـان والبرتغـال والإيطاليين . . وحتى الهولنديين والبلجيكيين . . !!

هـذا ويمكن القول بأن القـرن التـاسع عشر - بصفة عـامـة - كان هـو الفترة الحرجة بالنسبـة للدول الاسلامية عامة ، والـدول العربية بصفة خاصـة ، ففي بدايته تماما ، بل وقبل تلـك البدايه بعـامين ، اندفعت الحملـة الفرنسية بقيـادة «بونـابرت» لتعبر البحر المتوسط ، متجهة جنوبـا لتدنس أرض مصر الإسلامية ، ومفتتحة عصر الحروب الصليبية الجديدة ، في قلب العالم الإسلامي ، عام ١٧٩٨م .

ولقد قـاوم المسلمون في مصر مقـاومة عنيفـة خاصـة حينما تأكـدوا أن الغازي الأوروبي قد جـاء لينال من دينهم ، بعـد أن كان قـد خدع البعض وأشـاع أنه دخل الإســلام(!!) وراح آلاف الشهــداء ، من الـرجــال والنســاء والأطفــال ، ولكن الأوروبيين (الفـرنسيين) تفــوقـوا عليهـم بفضل العلم .. والسـلاح .. واللــذين افتقدهما المسلمون من وقت طويل. (١)

وخرج الفـرنسيون من مصر ، بعد سنـوات معدودة ، وحاول البريطـانيون أن يدخلـوها ، ليطـردوا فوراً من رشيـد عام ١٨٠٧م ثم ليعـودوا إليها - إلى مصر - من جديد عام ١٨٨٢م ، كي يستقروا فيها لأكثر من سبعين عاما .

وفي أقصى الغرب من العالم العربي ، انـدفع الفرنسيون ليحتلوا الجزائر المسلمة عـام ١٨٣٠م ، مـدعين بـأن الخطأ هـو خطأ البحـر المتــوسط الـذي فصل التراب الجزائري عن التراب الفرنسي .. (!!) .. حتى حقائق الجغـرافيا التي لا تتزحزح .. أرادوا قلبها والعبث بها .. !!

ومن بعـد ذلك احتلوا المغـرب وتـونس ، ولحقت بهم إيطـاليا الاستعمارية في محاولـة لإذلال المسلمين المجاهـدين في ليبيـا . وحقـا لقد انفتحت شهيـة الأوروبيين للاستعمار الشره ، ودبت النـار في شرارة الصليبية التي لم تخمـد ، منذ هـزيمتهم أمام

---

(١) محمد جلال كشك : ودخلت الخيل الأزهر، الدار العلمية، بيروت، ١٣٩١هـ-١٩٧٢م.

المسلمين - منذ قرون - حول بيت المقدس ، على يد صلاح الدين والمسلمين المجاهدين الموحدين ، فجاءوا ينتقمون . . هنا . . في عالمنا العربي . . وكذا في آسيا وإفريقيا . . بل وحتى في المحيط الهادي البعيد ، حتى وصلوا إلى جزر الملايو وإندونيسيا .(١)

ولقد كان نشوب حربين عالميتين كبيرتين بين الدول الاستعمارية بعضها البعض بعد أن انضمت إليها روسيا وأمريكا واليابان ، هو قمة الصراع بين المغتصبين ، ودفعت الدول الصغرى - المستعمرة- وكانت الدول الإسلامية من بينها ، الثمن في الحرب . كما دفعته في السلم ، من دم أبنائها تارة ، ومن ناتج عملها واقتصادياتها تارة أخرى ، بل ومن ضياع سنوات غاليات من مستقبلها ومستقبل أبنائها .

وعقب الحرب العالمية الثانية نال كثير من الشعوب الإسلامية استقلاله ، وبدأ يعيد ترتيب بيته من الداخل ، وينظر إلى مستقبله ، كي يعوض فترات التخلف التي سادته زمناً ، وظهر عنصر جديد في الأمر ، فلقد أراد الله سبحانه وتعالى بالمسلمين في المنطقة العربية خيراً ، فتفجر البترول من باطن أراضيها ، وخاصة دول الخليج العربية ، وكان ذلك إيذاناً بمرحلة جديدة من التغير .

لقد استفاد أصحاب البترول من عائداته في محاولات جادة لإعادة بناء أنفسهم وأوطانهم . ولقد كانت العائدات النفطية من الكثرة والوفرة ، وخاصة بعد حرب رمضان ١٣٩٣هـ - أكتوبر ١٩٧٣م المجيدة ، بحيث اجتذبت إلى مياههم عشرات الشركات الضخمة . . بل مئاتها ، ومن ورائها دولها التي جاءت تدعمها وتطلب

---

(١) محمد عبد العليم مرسي : التغريب في التعليم في العالم الإسلامي ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ، ١٤٠٩ هـ .

لنفسها بعض الغنم .

ونظر العرب حولهم ، وخاصة عرب الخليج ، ورأوا أن الدول المتقدمة في الغرب ، وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية وانجلترا وفرنسا وألمانيا ، . وكذا اليابان في أقصى الشرق ، رأوها وهي تستفيد من بترولهم في دعم صناعاتها وبناء الرفاهية لمواطنيها ، فأقبلت على استيراد كل ما يمكنها من هذه الدول لتنفيذ خطط جديدة للتنمية الشاملة ، كي تعوض ما فاتها في وقت قصير جداً ، أخذاً في الحسبان أعمار الشعوب والدول .

ولقد عمدت حكومات الدول الخليجية البترولية إلى بناء البنى الأساسية التي تخدم اقتصادها وتدفع بخطط تنميتها إلى الأمام ، فأقامت المصانع ، وشيدت المدارس والجامعات ، ورصفت الطرقات ، وشيدت المطارات والموانىء البحرية ، وأنشأت شبكات هائلة للبرق والبريد والهاتف والكهرباء والمياه .

وكانت طبيعياً أن تتغير منطقة الخليج من النقيض إلى النقيض ، حيث انتقل مئات الآلاف من البادية ومن حياتها المتنقلة ، إلى المدن حيث الاستقرار والعمل المنتظم ، وبالتالي تغيرت أعمالهم ، فبعد أن كان احتراف الرعي أو الزراعة البسيطة أو الصيد البدائي هو الأساس عندهم ، ظهرت في حياتهم أعمال أخرى جد مختلفة ، كالتجارة والصناعة ، والعمل في دواوين الحكومة المختلفة ، كما تطورت الزراعة بالعلم والميكنة .

وظهرت وسائل للمواصلات جد مختلفة عما تعوده أهل المنطقة في السابق ، وأصبح استعمال الطائرة للركوب أمراً عادياً بعد أن أصبح عنصر الوقت حيوياً بالنسبة لسكان المنطقة ، ناهيك عن آلاف الآلاف من السيارات . من كل صنف ولون .

هـذا وعلى الـرغم من جهـود الحكــومـات الخليجيـة في مجال التعليم ، والتي بسببهـا انتشرت معاهـد التعليم ومؤسسـاته في جميع المدن . . كبيرهـا والصغير ، بل ووصلت الخدمـات التعليميـة إلى البـدو المتنقلين ، وإلى المزارعين في قـراهم ، نقـول وعلي الرغم من كل ذلك ، إلا أن هناك تغيراً جديداً في هذا المجال ، هو خروج الآف من أبناء الخليج للدراسة في الخارج ، في بعض البلاد العربية ، وخاصة مصر ، وإن كـانـت الموجـة الجديـدة التي صـاحبت الطفـرة البترولية ، اتجهـت إلى الغـرب ، وبالتحديد إلى الولايات المتحدة الأمريكية .

وتأثـرت حيـاة الأسرة ونمطهـا كثيرا بهذا التغير الكبير الــذي عم كل ركن من أركان الحيـاة في المنطقة ، فتأثـرت حياة الأفراد في مـأكل وفي مشرب ، وبدأت بعض القيم الطيبـة التي كانت تـربط السكـان ببعضهم تتأثـر . بسبب المادة ، وكان هـذا وضعاً غريباً . . وجديداً على المنطقة وأهلها .

وعلى الـرغم من التقدم الـذي شهـدته المنطقـة ، والتطـور الهائل الذي وجـد طـريقه إلى مظـاهـر الحياة فيهـا ، ولا يزال ، إلا أن هـذا التغير قـد جاء معـه ببعض المشكـلات ، وهذا أمـر عـادي وطبيعي ، خـاصة وأنـه كـان على سكان المنطقـة أن يعتمدوا إلى حـد بعيد على قـوى عاملـة أجنبية ، جـاءت إلى المنطقة بعـاداتها وقيمها ومعاييرهـا التي تختلف جذريـاً عن كل ما فيها ، وخـاصة تلك العمالـة التي جاءت من جنوب شرقي آسيا ، وبالتحديد تلك القادمة من بلاد لا علاقة لها بالإسلام .

كذلك فإن الاعتماد على التكنولـوجيا في حد ذاته يحضر معه أنواعـاً جديدة من القيم ومن المعـاملات التي تصحب - عـادة - الجديـد من المخترعات ، وكـان على العرب أن يواجهوا التغير . . وأن يتعاملوا مع مشكلاته . وما كان للتربية أن تتخلف عن القيـام بـدورهـا في هـذا المجـال ، لأنها هـي الملاذ وهي الـوسيلـة لمواجهـة تلك

المشكلات .

الذي نريد قوله والتأكيد عليه هنا هو أنه على الرغم من أن البترول وظهوره بالكميات التي ظهر بها، وارتفاع أسعاره بالشكل الذي جرى، في الفترة التي سبقت الإشارة إليها، وهي التي أعقبت حرب رمضان/ أكتوبر، وعلى الرغم من أن كل ذلك كان فاتحة خير للإقليم وأهله إلا أنه قد ظهرت هناك بعض السلبيات والأخطار التي تعيها الحكومات، ويعيها المفكرون من أبناء المنطقة، وذلك في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتي يمكن أن يذكر بعضها كمايلي :-

١- إن البترول سلعة مستهلكة ، سوف تنضب بعد حين ، طال ذلك الحين أم قصر ، وأن المنطق والعقل يقولان ببناء مشروعات ضخمة وأساسية ، تكون ركائز للمستقبل ، حتى لا يعود الناس كما كانوا ، وهذا بالفعل ما وضعت بعض دول المنطقة أقدامها عليه بخطى راسخة ، وخاصة في المملكة العربية السعودية ، حين عزمت على تنويع مصادر الدخل فيها ، وقد نجحت بالتحديد في مجال الزراعة . . وهو المجال الأصعب ولكنه الأفضل والأبقى . .

٢- إن ظهور البترول بهذه الكميات الضخمة قد اجتذب إلى منطقة الخليج العربي ، دول العالم الكبيرة ، وإن خدمات هذه الدول ليست حباً في العرب بمقدار ماهي طمع فيما لديهم من ثروات .

٣- إن استنفاذ ثروات العرب واستنفاذ طاقاتهم التي قد تدفعهم خطوات إلى الأمام ، شيء قد يخطط له عن قصد. . وعلى البعد، ويجري تنفيذه على أرضهم.

٤- إن اعتماد أبناء هذه الدول على العمالة المستوردة أمر يجب أن يكون في عداد«المؤقت»لا«الدائم» وهذا المطلب يلقى عبئاً كبيراً على التربية ، وعلى المخططين لها ، خاصة في المجالات الصناعية والفنية حيث تفشت هذه العمالة ووصلت حد

الخطر .

٥- إن استيراد تلك الأيدي العاملة قد ترك - في معظم الأحوال- دون تخطيط أو ترتيب ، فجيء بعشرات الآلاف (أحياناً مئاتها) من بلاد تبتعد كل البعد عن معتقدات أهل الإقاليم بكل ما يمثله ذلك من أخطار على المجتمع وقيمه .

٦- إن خروج عشرات الآلاف من أبناء المنطقة سنوياً إلى دول الغرب من أوروبا وأمريكا ، وسياحتهم فيها ، يتم في بعضه بأساليب غير متحضرة ، تسيء إلى المنطقة وأهلها، وتجعل الحكم عليها صعباً، حتى من جانب الذين يبتزون أموالهم هناك!! .

٧- على الرغم من وفرة الأموال في أيدي الأفراد ، إلا أنهم تركوا العبء كله على كاهل حكوماتهم ، لأنها غنية أيضاً ، ولكن ذلك عكس عدم المشاركة ، وأحياناً عدم الاهتمام بما تقوم به تلك الحكومات في مجالات الصحة والتعليم وغيرهما ، وذلك بعكس دافع الضرائب في المجتمعات الغربية الذي يشعر أنه شريك كامل . . له حقوق . . وعليه واجبات .

٨- إن وفرة الأموال في أيدى بعض الأفراد جعلت أبناءهم لايشعرون بأهمية تلك الأموال ، ولا بكيفية الحصول عليها ، ومن هنا فلم يتعودوا احترام العمل كقيمة في ذاته ، كما يحدث في المجتمع الغربي الأوروبي أو الأمريكي .

٩- إن كثيراً من القيم الطيبة التي كانت سائدة في المنطقة بدأت تتداعى أمام المخترعات الحديثة وتطبيقاته(١) .

(١) محمد عبدالعليم مرسي : دور التعليم العالي في تنمية دول الخليج العربي، مجلة مركز البحوث، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد الأول، الرياض، كتاب : بلادنا والزيت لنخبة من الكتاب السعوديين، جمع مادته وقدمه عبدالله بن محمد بن خميس، كتاب الشهر، النادي الأدبي بالرياض، ١٣٩٩-١٩٧٩م .

ماهية التغير :

يتضح من المدلول اللفظي للتغير أنه يشير إلى التحول أو التبدل أو الانتقال من حالة إلى حالة مختلفة ، فإذا أضفنا لفظ «اجتماعي» إلى التغير أصبحت الإشارة هنا إلى تحولات أو ذبذبات متصلة بالمجتمع وعناصره ، نظمه ، عملياته ، والعلاقات بين عناصره (١) .

والتغير سنة من سنن الله ، سبحانه وتعالى ، وهو نتيجة لتفاعل الأفراد مع بعضهم ، ولتفاعل الجماعات مع بعضها . . داخل المجتمع الواحد ، كما أنه يتم نتيجة لتفاعل المجتمعات أو الشعوب مع بعضها البعض .

هذا وهناك بعض المحاولات العلمية ، خاصة من جانب علماء الاجتماع ، لتعريف التغير . . من بينها «أنه يشير إلى أن أعداداً كبيرة من الناس يمارسون أعمالاً ويقومون بأنشطة اليوم ، تختلف عن تلك التي مارسوها هم وآباؤهم من قبل» (٢) كذلك فإنه «هو التغير الذي يشير إلى كل ما يطرأ ، في سياق الزمن ، على الأدوار والمؤسسات والأنظمة التي تحتوي البناء الاجتماعي ، من حيث النشأة والنمو والاندثار» . (٣)

ونلاحظ هنا أن التعريف الأول قد أشار إلى أن التغير قد أصاب «الأعمال والأنشطة» التي كان الناس يقومون بها ، فأصبحوا يمارسون أعمالاً وأنشطة أخرى مختلفة . أما التعريف الثاني فإنه تحدث عن التغير وصلته بالأدوار الاجتماعية للأفراد ، كما تعرض للتغيرات التي تحدث أيضاً للمؤسسات والأنظمة الموجودة في المجتمع ، وذلك من حيث حالاتها التي تمر بها منذ نشأتها ، وفترات ازدهارها

(١) الفاروق زكي يونس : الخدمة الاجتماعية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٧٨م ، ص ٣٤٢

(2) Francis Merril: Society & Culture, Prentice Hall, New Jersey, 1961, 482.

ونموها . . ثم اندثارها .

هـذا وهناك من البـاحثين من اهتم وتحدث عن «إرادة التغيير» لدى الشعـوب وقيـاداتها ، وأن هذه الإرادة هي التي تقف وراء التنميـة الفعـالة في المجتمع ، فهـذه الإرادة هي التي تبني القـرى وتقيم المصانع وتشق الترع ، وتشيّـد الكباري والقنـاطر والسدود ، وتنتج الغذاء . . إلخ(١) .

وهناك بعض المفكرين الذين يميلون إلي تحليل التغير وتقسيمه إلى أنواع محددة واضحة المعالم ، تفصل بينها حدود مميزة فهم يفـرقون – على هذا الأساس– بين ثلاثة أنواع من التغير هي :

١- التغير الحضـاري :Civilizational Change، وهــو ذلك النــوع من التغير الـذي يتضمن العنــاصر الماديـة Physical elements في المجتمع ، مثل المخترعات التي تحدث فيه ، وأنواع التكنولوجيـا التي يستخدمها ، وكذا العلوم التي توصل إليها ، ووسائل اتصالاته المختلفه والمتنـوعة ، والتي تربط بين أبنائه من ناحية ، وبينهم وبين غيرهـم من شعوب الأرض ، من ناحية أخرى .

٢-التغير الثقافي :Cultural Change، وهو ذلك النـوع من التغير الذي ينصب على التغيرات في المعـرفـة المتـداولة بين أبنـاء المجتمع الـواحـد ، وعلى أنـواع الطقوس أو الشعـائر التي يمارسـونها ، وعلى الديانـات التي يعتنقـونها ويتعبدون على أساسهـا ، كما أنه ينصب على أشكال الفنـون التي يهتمون بها ، مثل الـرسم والفنون المعمارية والرقصـات التي يؤدونها ، والأدب الذي يقرأونه ويتأثـرون به ، والمسرحيات التي يشاهدونها . . إلخ .

---

(١) سيـــــــد أبو بكر حسانين : طريقة الخدمة الاجتماعية في تنظيم المجتمع ، الأنجلو المصرية ، القاهرة، ١٩٧٤ ، ص٤٨-٤٩ .

٣- التغير الاجتماعي : Social Change ، وهـو الـذي يتعلق ، بعـد كل مـا سبق ، بالعـلاقات الاجتماعية بين أفـراد المجتمع ، وبالتـوازن أو التعادل Balance or equilibrium الذي يضبط هذه العلاقات . (١)

والواقع أن هذا التحليل المفصل والمحدد للتغير لـه ميزة هامة ، وهي أنه يحدد على وجه اليقين أي نـوع من التغير نتحدث عنه أو نبحث فيـه ، ومن هنا فهـو يزيل الالتبـاس الـذي يقع فيـه بعضنـا كثيراً عند معـالجتـه لقضيـة التغير ، كما أنـه يجعل الحديث أكثر علمية .

ولكن المشكلة البسيطـة التي يجب أن ينتبه إليها الباحث في هـذا المجال ، هي أنـه عند الحديث عن التـوازن في المجتمع ، وعـلاقاتـه الاجتماعيـة ، أو عدم التـوازن Disequilibrium ، في تلك العـلاقات ، ينبغي ألا يغيب عن بـاله أنـه لابد وأن يتعرض - بصورة أو بـأخرى - للتغيرات والتقلبات Vicissitudes التي تحدث في المجالين الحضاري والثقافي . إذ أن التغير الاجتماعي لا يمكن عزله أو فصله عنهما ، وبالتالي لايمكن الحديث عنه بمعزل عن تأثيرهما .

إن نسيج العلاقات الاجتماعية التي تكّون المجتمع ، بالصورة التي هو عليها ، نسيج معقـد ومتشـابك ومتأثـر بكل اختراع فني ، أو حتى بكل تغير في الملبس ، أو مايطلق عليه «الموضة» ، كما أنه متأثر أيضـاً بكل جديد في عالم الفن ، أو بكل تقدم في ميدان من ميـادين الإنتاج ،كما أنه ينبغـي أن يكون محكومـاً بالضبط الاجتماعي . إن الحياة واحدة ، وعـلاقاتها نسيج متصل متكامل غير متقطع الأجـزاء ومن هنا فان كل تغير فيها هو سبب ونتيجة في نفس الوقت .

(1) Ivory Movrish:The Socicolgy of Education, George Allen & Unwin LTD London 1972, q. 64.

وإذا اقتنعنا بأن كل جـديد في مجال الاختراعـات التكنولوجيـة يؤثـر على حياة النـاس ، بصورة أو بـأخرى ، سلبـاً وإيجابـاً ، إذا اقتنعنـا بهذا ، أدركنا إلى أي حـد تجري سرعـة التغير في مجتمعات اليـوم بسبب مئات الاختراعـات التي تظهر في حيـاة الناس اليوم . . في كل مجال من مجالات الحياة .

ويكفي في هـذا المجـال أن نتـذكـر الكم الهائل من الأجهـزة الحديثـة في مجال الألكترونيات أو الحاسبات الآلية (الكمبيوتر)(*)بأجيالها المختلفة والمتعاقبة ، وكذا في مجال التليفزيون وأجهزة الفيديو المستحـدثة والمتجددة ، والأقمار الصناعية الدوارة في الفضاء .

بل إن ميداناً من الميادين القديمة جـداً في حياة الإنسان ، هو ميدان الزراعة، قد أصابـه التغير بشكل غير عادي ، لدرجة أنه أصبح أقرب الى الصنـاعة بتعقيداتها وفنونها وتطورها منه إلى الزراعة الرتيبة التي كـانت معروفة لنا جميعا . ولنا أن نقرأ حول ما يتم في هذا المجـال في البلاد المتقدمة زراعيـاً ، خاصة في كندا واستراليـا والولايات المتحدة الأمريكيـة ، من أساليب جديدة في عمليات الزراعـة ، ومن أساسيات إدارة المزارع الضخمة التي تصل مساحة بعضها أحياناً إلى أكثر من مليون فدان . . !!

كـذلك نقـرأ عن تغيير وتحسين وتطـويـر الآلات العمـلاقـة المستخـدمـة في الزراعة، وننتقل لنتعلم عن الجديـد في أنواع البذور المستنبتة ، والمخصبـات الزراعية التي لا يتوقف البحث فيها، إلى سلالات النبـاتات المختلفة والمتنوعة ، والتى تلعب فيها الهندسة الوراثية أدوارا أقرب إلى الخيال اليوم .

وبـاختصـار فـإن هـذا الميـدان قـد مسته يـد التغير والتطـور . . أو بمعنى

(★) في مطلع العـام ١٩٨٦م أعلنت الولايـات المتحـدة الأمريكيـة أن لديها جهـاز كمبيـوتر يقـوم بمائتين وخمسين مليونـاً من العمليـات الحسابيـة في الثانيـة الواحـدة (!!!) ، وأنه يستخـدم في مجال الفضاء الخارجي .

أصبح . . يد التغيير والتطوير ، في كل مجال من مجالاتـه . . زراعة وحصاداً . . وريا وعنـايـة . . ونقــلا وتسـويقـا . . الخ بـالإضـافــة إلى تجارب لازالت قيـد التنفيـذ كمحاولات الزراعة تحت مياه البحر . . في اليـابان . . (!!) . . إلى زراعات ناجحة للشعير ولنباتات تشبه الطماطم . . في الصحراوات القاحلة في أمريكا (!!)

إن كل هذا قـد غير كثيرا - بطبيعة الحال- في حياة الناس ، وخـاصة المزارعين في تلك المجتمعـات ، بحيث أصبحت صـورة المزارع القـديم . . الـذي كـان يبـذر الحب ويجلس هـادئاً . . سـاكنـا . . كسـولا . . شهورا عـدة ، . في انتظـار ظهـور المحصول الجديد ، هذه الصورة قـد ولت وأصبحت في ذمة التاريخ ، بعد أن أصبح هذا الفـلاح أكثر اعتمادا على العلم ، وعلى الآلة الحديثـة . . حتى الكمبيوتـر أدخله في عمليات تخزين الغـلال ، كما أصبح لديه الكثير من الوقت . . وقت الفـراغ الذي عليه أن يفكـر في كيفية قضـائه ، وكذا أصبح لديـه الكثير من الأموال الفـائضة التي ينبغي استثمارها .

وينبغي علينا هنا في منطقة الخليج العربي . . خاصة وفي المنطقة العربية بصفة عامة ، أن نتنبه إلي ما يجرى على أرضنا . . ومن حـولنا . . من تغير ، خاصة وأن هذا التغير يجري بمعـدلات سريعــة ، في جميع الاتجاهـات ، وفي جميع نـواحي حيــاتنـا الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية . بل والنفسية . . الخ .

ومعنى التنبـه والـوعي هنـا هو أن نكـون على حـذر من هـذه التغيرات ، وأن ندرس أسبـابها وعواملهـا . . وكذا طـرق سيرها . . وتأثيراتها . . ونتـائجها ، وذلك حتى لا نفاجأ بنتائج غير متوقعة قد تأخذنا على غرة .

إن التغير أمـر حتمي ، كما سبق القـول في الكتـابـات السـالفـة وفي غيرهـا ، لدرجة أنه ينسب إلى هيراقليطس Heraclitus الذي عاش خمسمائة عام قبل ميلاد

السيد المسيح (عليه السلام) ، ينسب إليه قوله : «ليس هناك من شيء دائم على الأرض . . إلا التغير»[(١)]

هذا ولقد تنبهت الشعوب الغربية ، وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية ، لموضوع التغير الذي يسير بسرعة عظيمة في مجتمعها ، فبدأت تلاحقه بالبحوث وبالتوقعات العلمية وبالاستعدادات ، لدرجة أنه سادت هناك صيحة ذكية ، وذات معنى واع حصيف ، تقول : «دعونا نستعد لتنظيم المستقبل ، لأن الوقت قد أصبح متأخرا جدا لتنظيم الوقت الحاضر . . !!»[(٢)]

كذلك ظهرت في المجتمع الأمريكي صيحات حديثة نتيجة لسرعة وشدة التغير ، هذه الصيحات تتحدث عن المستقبل وعن الاستعداد له ، نتيجة لتوقعات علمية مبنية على إحصاءات وأرقام عن حركة الحياة في المجتمع فيما يستقبله من أيام ، بل وأصبحت هناك مقررات تدرس علي مستوى الدراسات العليا في مجال علم المستقبل Futurism ، وصار أصحاب هذه الصيحات يدعون بالمهتمين بالمستقبل Futurists .

وعلى سبيل المثال فإن بعض المحاور الرئيسية لهذه الدراسات التي تمت في أمريكا تقول بأنه بحلول العام ٢٠٠٠م سوف يصل عدد سكان العالم الى ٤ ,٦ بليون نسمة ، وتلك زيادة خطيرة ستصل إلى ٥٠٪ من عدد السكان الحالي (وقت تأليف الكتاب المرجع عام١٩٨١) ، وأن نسبة كبيرة من هؤلاء السكان سوف يكونون فقراء بشكل محزن ، وأن هذا العالم المزدحم لن يكون مستقراً ، بل إنه سيكون عرضة للتمزق والتحطم .

---

(1) William C.miller: The Third Wave & Education's Future, phi, Delta kappa Educational Foundation, Bloomington, Indiana, 1981, p.8.

(2) Ibid., p.7.

بل وأكثـر من ذلك أن هناك تقـريراً عـالمياً عن الـوضع عام ٢٠٠٠م وقـد دفع للـرئيس الأمـــريكي The Global 2000 Report to the president تنبأ واضعوه بأن الطلـب علي الطاقة النـووية سـوف يتضاعف ثـلاث مرات بحلـول عام ١٩٩٠م . إن هناك عـالماً مختلفاً تمام الاختلاف جاري التكـوين في الوقت الحاضر ، وهذا العـالم يتطلب أساليـب جديدة للتعـامل معه ، كما أنـه بالقطع سـوف يتطلب إعداد أفراد من نوعيات خاصة .

ولعلنـا قبل أن نختتم هـذا الجزء نـؤكد علي أن مـواجهـة التحـدي . . تحدي المستقبل المتـوقع هذا ، وكـذا التغيرات التي تتم الآن . والتي ستتم في المستقبل ، هي من عمل التربية بلا شك ، والتي ينبغي أن تكون على استعداد للاستجابة لكل تلك التحديات ومواجهتها بفاعلية .

هـذا ومن بين المجـالات التي أولاها العلماء الأمـريكيـون اهتمامـاتهم بالنسبـة للتغير ، مجال الأسرة ، فالأسرة الأمريكية كـان من المعروف أنها محور الحياة في المجتمع الأمريكي ، وهـي الآن تتغير . فسابقاً كـانت ذات بناء واضح . . فـالأب في العمل . . والأم ترعى شؤون المنزل ، والأطفال بطبيعة الحال هم الركن المكمل لحياة الأسرة .

أما اليوم فإننا نجـد أن نسبة ١٦٪ فقط من الأسر الأمريكية هي التي يمكن أن ينطبق عليهـا النمـــوذج السـابق ، حيث أن أكثـر من نصـف الأمهـات في المجتمع الأمـريكي قـد خرجن إلى مجالات العمـل المختلفة ، وأن نسبـة ٤٥٪من كل الإنـاث اللائي تتراوح أعمارهن بين١٨-٦٤ سنة هن ضمن القوى الأمريكية العاملة .

كـذلك فإن هناك نـزوعـا نحـو الزواج المتأخـر . . أو عـدمه على الإطـلاق ، بـالإضافـة إلي زيادة سريعـة في عدد البيـوت التي يعيش فيها طـرف واحد من طـرفي الأسرة ، أي الوالـد أو الوالـدة . ففي الفترة من ١٩٧٠ - ١٩٧٦ كانت هنـاك زيادة

مقدارها ٣٣٪ في البيوت التي ترعاها الإناث . . بمفردهن .

وما هو أخطر من ذلك . . التغير والتحول في الأخلاقيات ، حيث أصبح المجتمع الأمريكي يتغاضى ويتسامح في جانب أخلاقي خطير ، وهو أن يعيش الرجل والمرأة تحت سقف واحد ، بينما هما ينفصلان تماماً عند الحديث عن الوالدية Parenting ، حيث يستقل كل فرد منهما بتربية الإبن أو الابنة . . بعد الاتفاق على ذلك فيما بينهما ، وهذا ما يعرف هنا بمصطلح Living together & Parenting alone[١] . . !! ، بل إن هناك تسامحاً غريباً ومخجلاً من جانب المحتمع حين يسمع ويرى المرأة وهي تعيش مع زوجها الجديد . . وعشيقها السابق . . تحت سقف واحد . . !!! .

---

(1) Ibid, p.9